مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية، المجلد 26، العدد 9: 2018.
Journal of University of Babylon for Humanities, Vol.(26), No.(9):2018.

The Vision of Death From an Individual Perspective When Poets of the Middle East in the Middle Ages

Hadi Ali Hadi Almuaab **Karim Hassan Janana Al- Lami**
College of Education/Al-Mustansiriya University
hadi.ali@uobabylon.edu.iq Kareem303060@yahoo.com

Submission date:21 /5/2018 **Acceptance date**: 3 /7/2018 **Publication date**: 27/1 /2019

Abstract

this research presents an important problem in literary studies which is the problematic vision of death formed in the minds of poets from an individual perspective . He tries to follow this insights in the mind of poets about death and spread in the poetry of the lamentation in the middle ages as this era has a month of dramatic changes in all levels :social ، cultural ،and political levels first of all . before all that which led in turn led poetry dye this period special features separated from other poetry of all ages of the Arab culture combined . This research aims to touch the features of privacy and the strengths and weakness contained in this poetry and to indentify the characteristics and characteristics of poetic vision and the factors of composition and emergence and reflection in the latter in the form of literary output. The lamenting poetry for individuals (Friends ،love ،family ،relatives) by including the vision of death from an individual perspective because the reflection of the incident (death).In this case it is the emotional effect achieved by the poet himself only.

Key word: Vision of death, individual perspective, lamentation, middle age, death.

رؤية الموت من منظور فردي عند شعراء المشرق العربي في العصر الوسيط

كريم حسن جنانه اللامي **هادي علي هادي**
كلية التربية/ الجامعة المستنصرية

الخلاصة :

يطرح هذا البحث إشكالية مهمة في الدراسات الأدبية وهي إشكالية رؤية الموت المتشكلة في أذهان الشعراء من منظور فردي.وهو يحاول تتبع هذه الرؤى المتشكلة في أذهان الشعراء حول الموت والمبثوثة في شعر الرثاء في العصر الوسيط، إذ ان هذا العصر قد شهد عددا كبيرا من التغيرات الدراماتيكية على كافة الأصعدة والمستويات الاجتماعية والثقافية والسياسية قبل كل ذلك، الأمر الذي أدى بدوره إلى اصطباغ شعر هذه الفترة بمميزات خاصة تفصله عن غيره من شعر سائر عصور الثقافة العربية اجمعها . ويهدف هذا البحث إلى تلمس ملامح الخصوصية ومكامن الضعف والقوة التي يشتمل عليها هذا الشعر والوقوف على مميزات وخصائص الرؤية الشعرية وعوامل تكوينها وانبثاقها وانعكاسها في الأخير على شكل نتاج أدبي . ويتخصص شعر الرثاء الموجه للأفراد (أصدقاء، أحبة، أهل، أقارب)باشتماله على رؤية الموت من منظور فردي لان انعكاس الحادثة (الموت) في هذه الحالة يتلخص في الأثر العاطفي المتحقق لدى الشاعر نفسه فقط.

الكلمات الدالة: رؤية الموت، منظور فردي، شعر الرثاء، العصر الوسيط،الموت.

Journal of University of Babylon for Humanities (JUBH) by University of Babylon is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License

نقصد بالمنظور الفردي: ذلك الشعر الذي نظمه الشعراء في رثاء أشخاص معينين (ملوك أو أمراء أو أصحاب أو أحباب) أو حتى في معاناة الحب والغرام، وهو يكشف عن رؤية ذات طابع فردي في فهم الموت لان القضية ذات أبعاد شخصية وخاصة وليست ذات أبعاد عامة وجماعية، فهو يبين الأثر المترتب على فقدان عزيز ما على نفس الشاعر وكيفية تقبله لواقعة الموت .

ترتبط مفردة الموت بشعر الرثاء ارتباطا مركزيا قويا جدا، لان شعر الرثاء يمثل الحاضنة الأساسية لرؤى الشعراء حول الموت، " فهو تمجيد لخصال الميت في مقابل المديح الذي هو تمجيد لخصال الحي"[1ص437]، وقد دأب الشعراء في مختلف عصور الأدب العربي على تصوير آلامهم ومواجعهم تجاه الأموات في إطار شعري يشتمل بالضرورة على أفكار عميقة أو بسيطة أحيانا حول الموت وموقفهم منه وفهمهم له.

والرثاء "فن من فنون الشعر العربي يجمع بين صدق العاطفة ورقة المشاعر، وبين سعة الخيال وحقيقة الواقع المؤلم والمحزن، فهو مزيج من القيم الفطرية في الإنسان تتفاعل في أعماقه فتضطرب من شدة المعاناة عند فقده لحبيب أو عزيز لديه"[2ص33]، وشعر الرثاء عند العرب معروف منذ وقت مبكر، منذ أحس الإنسان بفواجع الفقد وموت الأحباب والأقرباء والخلان فقد " عرف العرب الرثاء منذ العصر الجاهلي، إذ كان الرجال والنساء جميعا يندبون الموتى، كما كانوا يقفون على قبورهم، مؤبنين لهم مثنين على خصالهم، وقد يخلطون ذلك بالتفكير في مأساة الحياة وبيان عجز الإنسان وضعفه أمام الموت، وأن ذلك مصير محتوم" [3ص7]، وقد ذهب الدكتور شوقي ضيف إلى تقسيم الرثاء على ثلاثة مباحث هي الندب وهو بكاء الأهل والأقارب حين يعصف بهم الموت وقد يتجاوز الندب الأهل إلى من هم بمرتبتهم، أما القسم الثاني فهو التأبين وليس التأبين نواحا ولا نشيجا، بل هو أدنى إلى الثناء منه إلى الحزن الخالص، وثالث الأقسام هو العزاء وهو مرتبة عقلية فوق مرتبة التأبين وفيه ينفذ الشعر من مستوى التأثر الشخصي بالموت إلى التفكير في حقيقته ومعانيه الفلسفية العميقة " ينظر[3ص5-6]

وبالوصول إلى العصر الوسيط فان الرثاء كان من الأغراض المستمرة والمهمة في هذا العصر، إذ مثّل تيارا دافقا من تياراته "وبخاصة إذا ما قارناه بغيره من أغراض الشعر، ولعل ذلك يعود إلى طبيعة الرثاء، ومعانيه وما يحمله من ظلال داكنة، وتأثيرات سلبية على السامع، الأمر الذي يبعده عن أن يكون معرضا لإظهار البراعة والتفنن في الصنعة" [4ص277]، وعلى الرغم من ان فن الرثاء "أكثر فنون الأدب اندفاق عاطفة ..... وانسياب حنين لا ينضب معينه على مر الأيام ومردُّ ذلك النزف الداخلي لجرح الفقد والفراق الذي لا يوازيه جرح آخر ولا يعوضه شيء في الوجود"[5ص162]، إلا إننا لا نقطع بجودة شعر الرثاء في هذه الفترة بسبب ما أصاب مختلف فنونها الشعرية من تدهور وانحلال"وأما الرثاء فقد كان كالهجاء، لا نجد فيه جديدا يستحق الوقوف عنده طويلا، إذ انه تقليدي بحت"[6ص533]، ولا نعلم سبب الموازنة بين الرثاء وبين الهجاء من دون غيره من الفنون الشعرية ليصوغ الباحث رأيه هذا حول الرثاء، ولربما كان السبب وراء ذلك هو إن الرثاء عكس الهجاء من حيث انه ذكر لمناقب الميتين فيما يشتغل الهجاء على التعريض بالأحياء، فكلاهما يشتغل على الجانب القيمي والأخلاقي للشخص الذي هو موضوع المعالجة الشعرية. فيما برر بعض الباحثين هذه التقليدية بالقول "ان مشاعر الناس عند الموت متقاربة في كل زمان ومكان"[7ص34] وهو رأي غير سليم في تقديرنا، إذ إنّ المشاعر وإن كانت متشابهة فان ذلك لا يُسوِّغ تشابه طرائق التعبير تلك المشاعر، والشعر ليس وسيلة تعبير اعتيادية عن المشاعر إنما هو تعبير فني لا يقاس بمدى ما يوفره من طاقة حسية إنما بمدى ما يصوره من صور جديدة وما يطرحه من أفكار خلاقة حول الموت وتأثيراته في هذا المضمار.

والمعروف إن هذا العصر هو عصر نكبات بامتياز تلاحقت فيه المصائب والويلات والأوبئة والأمراض على هذه المنطقة وهو واقع وفّر مادة ثرة ومحفزات ذات طاقة إيحائية وتشجيعية عالية جدا للشعراء للنظم حول موضوعات الموت المتعددة.

ويندرج في مجال رؤية الموت من منظور فردي شعر الرثاء الذي نظمه شعراء العصر الوسيط في رثاء الموتى من الأقرباء والأصحاب والملوك والغلمان ويندرج فيه أيضا شعر رثاء النفس والتصبر على الموت.

أما رثاء الأفراد فقد مثل هذا الرثاء جزءا كبيرا من شعر الرثاء في العصر الوسيط ووفر مادة لا بأس بها لمن أراد دراسة مفهوم الموت ومجموعة العوامل المساهمة في تكوين رؤى وأفكار الشعراء حول الموت في العصر الوسيط.

ولا بد من الإشارة هنا إلى ما يشبه المُسلّمة التي لا خلاف عليها وهي إن مفهوم الموت عند الشعراء في هذا العصر نابع من منظومة دينية إسلامية مستحكمة على أذهانهم وأفكارهم،فنحن نتعامل في هذا الصدد مع عصر ضعُفت فيه عوامل التأثير والتأثر والتبادل الثقافي والتلاقح الفكري وهو أمر دفع الشعراء إلى التعبير عن رؤية هي في أقصى تمثلاتها دينية صرفة . فالواقع الثقافي علاوةً على الممكنات الفنية والأسلوبية لم تتح للشعراء تكوين رؤى خاصة إلا ما ندر وهو ما سنلحظه في ثنايا الصفحات القادمة من هذا البحث؛ ينظر:[8ص1-4].

لقد وضع الإسلام منظومة مفاهيمية جديدة حول كل شيء في حياة الإنسان وصولا إلى موته، وركَزَ في الأذهان عددا من الأفكار التي ترسّخت بمرور الزمن، إننا هنا نود الإشارة إلى قضية الاصطبار في مواجهة الموت والاستسلام للقضاء والقدر يقول فخر الدين مظفر بن الطرّاح [9ص329-330]:

القولُ فيما مَضَى مِن عُمرِنا هَذَرُ ... فَدَعْهُ وَاصْبِرْ لِما يأتي بِهِ القَدَرُ

وَاسْتَشْعِرِ الصّبْرَ إنْ تَأتِيكَ نَائِبَةٌ ... فالصّبْرُ أجْمَلُ مَا حُلِي بِهِ البَشَرُ

ولا ترُعْكَ مِن الأيامِ مَنْقَصَةٌ ... فَشِيْمَةُ الدَّهْرِ فِي أبْنَائِهِ الغِيَرُ

وَإنْ أرَى الآنَ بَعْدَ النُّطْقِ ذَا حَصَرٍ ... فَسَوْفَ يَذْهَبُ عَنّيْ العِيُ وَالحَصَرُ

وَإنْ تُصِبْنِي سِهَامُ الخَطْبِ نَافِذَةً ... فَلَمْ تَزَلْ أسْهُمُ الأيَّامِ تَقْتَدِرُ

وَكُلُ حَادِثَةٍ فِي الدَّهْرِ هَيِّنَةٌ ... إذَا غَدَا سَالِمًا فِي طَيِّهَا العُمُرُ

إن الاستسلام الكامل للقضاء والقدر هو القيمة المركزية في القطعة الشعرية السابقة فالموت طريق واحد وواضح لا مناص منه ولا جدلية تكتنف التفكير فيه، وليس للإنسان إلا الصبر على النوائب التي تمر في حياته فهو المعين على تجاوزها، والحقيقة إن إدراك الإنسان للموت كان في مرحلة تجاوز فيها بدائيته وانتقل إلى كونه كيانا فرديا ، إلا أن مجرد الإدراك لا يكفي للتعبير عن رؤية ما، لان الأمر هنا يعكس انصياعا تاما لرؤية دينية ضاربة في عمق اللاوعي، وهي المتحكمة بالشاعر في ظل غياب الطابع الفردي والمستقل في التفكير عند الشعراء في مرحلة العصر الوسيط، وتتراوح في الأبيات السابقة مفردات (الموت، والاصطبار، والقبول بالقضاء والقدر والخضوع)، ويبرز هذا الموقف بوصفه موقفا خاصا من اصطناع الشاعر نفسه فهو يعبر عنه بثقة تامة وهدوء كامل ولكن الأفكار الواردة في الأبيات الشعرية أعلاه هي نتاج الغطاء المفاهيمي الذي توفره الثقافة الإسلامية السائدة، ولا يعبر بأي شكل من الأشكال عن خصوصية وتفرد أو معاناة ذاتية، فالشاعر في الأبيات أعلاه لم يكن له دور إلا في اختيار القالب الشعري الجامع لأفكاره، وهو أمر فيه نظر أيضا، إذ إن هذه القوالب جاهزة

شاعت في شعر هذا العصر، فالتقليد والتبعية تمثلت هنا على مستويين،المستوى الأول :ويتمثل في المبنى الشكلي للنص،فيما يتمثل المستوى الأخر في مجموعة الأفكار والمعاني والقيم التي يتضمنها النص فهي أفكار وقيم متوارثة متناقلة ومستنسخة بين شاعر وآخر من شعراء هذا الجيل يتداولونها استكمالا للأغراض الشعرية واستيعابا لفنون القول ليس إلا.

ومن المثير حقا أننا في أبيات تتحدث عن الموت لا نلقى أثرا أو ظلالا لفلسفة ما بحيث اننا لا نلمس بوادر قلق أو اضطراب داخلي يعانيه الشاعر هنا، بل نجد أنفسنا أمام نص شعري صلب ومُصْمَت بمعنى انه يعبر عن أفكاره بطريقة نهائية لا تقبل التساؤل ولا التفكير وبشكل يوحي أن الشاعر لا يتناول مسألة تثير القلق والتفكير الطويل، وإنما هي أمر واقع وحادث لابد منه، بل ويُشمُ من شعر كهذا رائحة الطمأنينة والهدوء هذا إن لم نقل إنها ظاهرة بوضوح وجلاء.

ومثلما تقدم نجد نموذجا آخر عند شهاب الدين محمود الحلبي [10ص432]

قِيْلَ مَا أَعْدَدْتَ لِلحَتْفِ وَقَدْ جِئْتَ مَحَلَّهْ؟
قُلْتُ أَعْدَدْتُ مَعَ التَّوْحِيدِ حُسْنَ الظّنِ بِاللهْ

إذ إن موقف الشاعر هنا لا يوحي إطلاقا بأنه يتعامل مع الموت، ذلك المفهوم الذي استعصى على التفكير والفهم، بل هو سهل عنده جدا وأمر يشبه الوقوف على ارض صلبة، ليس إلا التوحيد وحسن الظن بالله فالأمر مختزل إلى ابسط الشروط وإن كانت تتضمن داخلها مجموعة من الواجبات والعبادات إلا انه ليس هذا ما يهمنا، بل الذي يهمنا هو كيف يفكر الشاعر في العصر الوسيط حين يتعلق الأمر بالموت وهل يثير لديه هذا الشأن شيئا من الفزع والتساؤل والحيرة بالاضافة إلى التشاؤم والقلق، الجواب هو كلا، إذ ليس هناك ما يستدعي القلق والتفكر لان الشاعر قد حسم أمره في هذا الشأن واستسلم للقضاء والقدر والطمأنينة الناتجة عن إيمان ديني راسخ ومستقر، ومثلما للشاعر رغبة في الحياة،لديه رغبة في الموت لأنه النهاية المنطقية وبه تكمن الحياة وصيرورتها.

إلا اننا لا نعدم العثور على بعض مواقف الجزع من الموت وهو أمر شائع توارده في شعر الرثاء، فهذا صفي الدين الحلي يقول [11ص334]

سَمِعَتْ بِمَصْرَعِكَ البِلادُ فَأَرْجَفَتْ ... وَتَوَاتَرَ التَّصْدِيْقُ وَالتَّكْذِيْبُ
وَبَكَى لِرُزْئِكَ صَعْبُهَا وَذَلُولُهَا ... وَشَكَا لِفَقْدِكَ شَاتُهَا وَالذِّيْبُ
فُجِعَتْ بِكَ الدُّنْيَا فَلَا وَجْهُ العُلَا ... طَلْقٌ وَلَا صَدْرُ الزَّمَانِ رَحِيْبُ

يكشف الشاعر في هذه الأبيات حجمَ المأساة التي أضحى يعانيها من جراء وفاة المرثي معبرا عن ذلك عبر إيراد ألفاظ تجمع بين متناقضات الحياة من (الشاة والذيب) و(صعب الأرض وذلولها) بحيث يُطبِق على ذهن المتلقي من جميع الجهات .

ويقول أيضا [11ص331]:

جِبَالٌ بِأَرْيَاحِ المَنِيّةِ تُنْسَفُ ... غَدَتْ وَهِيَ قَاعٌ فِيْ الوَقَائِعِ صَفْصَفُ
مَحَتْهَا رِيَاحٌ لِلمَنُونِ عَوَاصِفٌ ... عَلَى أَنّهَا لَا تُتَقَى حِيْنَ تَعْصِفُ

أَفِـــيْ كِـــلِّ يَـــوْمٍ لِلمَنِيّـــةِ غَـــارَةٌ تُغِيْـــرُ عَلَـــى سِـــرْبِ النُّفُـــوْسِ فَتَخْطِـــفُ؟
كَـــأنّ حِبَـــالَ الـــسَّاحِرِيْنَ نُفُوسُـــنَا وَتَلْـــكَ عَـــصَا مُوْسَـــى لَهَـــا تَتَلَقَـــفُ
....
شُمُوسٌ أَرَانَا المَـوْتُ فِـيْ التُـرْبِ كَـسْفَهَا وَمَـا خِلْـتُ إنَّ الـشّمْسَ فِـيْ التُّـرْبِ تُكْـسَفُ

يشبه الحلي مرثيَّه بالجبال ويكشف بالنتيجة عن سطوة الموت الذي يحيل الجبال إلى تراب تذروه الرياح،ولا يفوته الاستناد إلى الموروث الديني في قوله(حبال الساحرين) في سبيل صياغة صورة لا تُبقي مجالا للشك في حتمية الموت ووقوعه وعجز الإنسان بل المخلوقات بعامة أمامه،من خلال التركيز الاعتماد على المفارقة الواقعة بين (حبال الساحرين) و(عصا موسى).

إن هذا النص لا يسمح لنا في حقيقة الأمر بالذهاب إلى القول بوجود معاناة يعيشها الشاعر من القلق أو التفكير في الأبعاد الفلسفية للموت، إلا انه يكشف هنا عن حزنه وجزعه الكبير بألفاظ لا تخرج عن كونها مبالغة شعرية فقوله في الأبيات أعلاه (أرجفت، تواتر التصديق والتكذيب،بكى صعبها وذلولها، شكا شاتها والذيب) من التعبيرات التي عهد استخدامها في شعر العرب قديما للتعبير عن الفقد ولا جديد فيها وقوله:

جِبَـــالٌ بِأَرْيَـــاحِ المَنِيّـــةِ تُنْـــسَفُ غَـــدَتْ وَهَـــي قَـــاعٌ فِـــي الوَقَـــائِعِ صَفْـــصَفُ

فهو من التعبيرات البكائية المتواتر ورودها في شعر الرثاء العربي، فالمنية غارة تغير على البشر تسلب منهم عزيزا وتنكبهم به والموت هو عصا موسى التي تتلقف حبال السامرين التي هي ليست إلا أرواح المتوفين .

ويبدو على هذا الشعر ما يبدو على غيره من أغراض الشعر في هذا العصر، إذ تسيطر عليه المعاني الرئيسة المسيطرة على شعر الرثاء العربي وهي "تتمحور في هول المصاب وانعدام المسرة والأمل،وسيادة اليأس والظلمة، وسقوط الأعلام والنسور، والبدور والكواكب وانقطاع النوم والأكل، وانتظار المصير الأسود،مع ما ينتج عنه من سخط على الأقدار وغدر الأيام، والاستكانة إلى القضاء والقدر " [5ص163-164]، فهو شعر تتجاذبه الصور المعروفة والمألوفة في شعر الرثاء العربي في مختلف عصوره وأزمانه، إلا إن رؤية الموت ضمن شعر الرثاء متأثرة بشكل خاص بطابع العصر فهنالك فرق بين مشاعر الحزن التي يشتمل عليها شعر الرثاء وبين رؤية الموت التي من المفترض أن يصورها هذا الشعر ونحن لا نعثر على جديد أو غريب حول رؤية الموت في شعر هذا العصر، لان رؤيتهم قد أصابها الكثير من التسطيح وبساطة التصور وسذاجة التفكير، يقول مجير الدين بن تميم. [12ص14]

لَوْ كَـانَ فَـيْضُ الـدّمْعِ يُرْجِـعُ مَـنْ نَـأَى عَنّـــيْ بَكَيْـــتُ بِـــسَائِرِ الأَعْـــضَاءِ
قَلْبِـــيْ لَـــهُ قَبْـــرٌ وَتِلْـــكَ عَجِيْبَـــةٌ أَنْ يُقْبَـــرَ الأَمْـــوَاتُ فِـــيْ الأَحْيَـــاءِ

تتصادى في البيت الأول من هذين البيتين أصوات البكاء والنحيب ويعلو النشيج نوحا وحزنا على من نأى بعدا عن الشاعر، فهو قد قُبر في قلبه – أي قلب الشاعر– وهو أمر عجيب مستغرَب عند شاعرنا، وهو وان كان

يشتمل على معاني حزن شفيف إلا ان المعاني و اللمحات القليلة المنتشرة في أبيات الشعر العربي في هذه المرحلة هنا و هناك لا تكفي للارتقاء إلى مستوى الوصول إلى رؤية عامة وكلية لمفهوم الموت .. فان تكون هناك معالم حزن واضحة في أبيات شعرية لا يعني ذلك تطور الرؤى و لا عمقها بل على العكس يدل دلالة واضحة على التقليدية والتبعية الكاملة غير المستنيرة بهدى التجربة الخاصة ... ولابن تميم بيت آخر يكشف عن المكانة التي يشغلها الموت في أذهان الشعراء في العصر الوسيط وما يشغله في تفكيرهم من حيز فهو يقول راثيا قدحا.[12ص18]

أَيَا قَدَحًا قَدْ صَدَّعَ المَوْتُ شَمْلَهُ ... فَأَصْبَحَ بَعْدَ الرَّاحِ قَدْ جَاوَرَ التُّرْبَا
سَأَبْكِيْكَ فِيْ وَقْتِ الصَّبُوْحِ فَإِنَنِيْ ... سَأُكْثِرُ فِيْ وَقْتِ الغَبُوْقِ لَكَ النَّدْبَا
وَإِنْ قَطَّبَتْ شَمْسُ المُدَامِ فَحَقُهَا ... لَأَنَّكَ كُنْتَ الشَرْقَ لِلشَّمْسِ وَالغَرْبَا

من المفيد هنا أن نتبين أن الموت قد تنزل عن كونه مسالة وجودية مقلقة ومستوى خطيرا من مستويات التفكير عند الإنسان إلى كونه وصفا لحالة ليس إلا، وهي حالة يومية كثيرة الحدوث لا تلقى بالاً عند كثيرين، ولكنها أصبحت في منزلة خطيرة بحيث عُبّر عنا باستخدام تعبير الموت، فانكسار القدح بمنزلة الموت، إذ انتقل القدح بانكساره من حال الحياة – مجاورة الراح – إلى حال الموت – مجاورة التراب – هذا عن الانتقال الذي يصيب الميت نفسه، أما عن ردة فعل الشاعر فهي ردة فعل من يصيبه مكروه كبير ومصاب جليل :البكاء والنواح في كل وقت تمر فيه ذكرى الراحلين. على أن رثاء الأشياء البسيطة يعد من ملامح المدنية ونتائجها فهو مما ترتب على خروج الإنسان العربي من البداوة إلى البيئة الحضرية.

إن الشاعر وإن كان يختم أبياته ببيت طريف مفاده أن الخمرة ستبكي حزنا على الفقيد إلا إن هذا لا يشفع وحده للشاعر ولا يُعلي من مرتبة شعره وأحقية رؤيته،فالموت حادثة يومية واقعة على كل شيء، وان أردنا الذهاب إلى أكثر من قولنا هذا لرأينا أن مفهوم الموت عند الشاعر يتلخص في عملية الانتقال من الحيوية الحركية والاستخدام المادي المفيد والوجود ضمن منظومة الحركة المُنتجة إلى العدم واللافائدة .

فالمنحى السابق يقف عند العتبة الأولى في سلم التفكير البشري حول الموت إلا إن الإنسان قد تجاوز هذه العتبة منذ وقت مبكر في تاريخه إلى مساحات أرحب وأكثر عمقا في التفاعل مع هذه القضية والتفكير فيها، ولكن شاعر العصر الوسيط الذي هو نتاج عصر النكوص والتراجع عبّر عن فكرة هي في منتهى البساطة والتلقائية، لا تتجاوز الحد الأدنى من حدود التعقل والتفكير في قضية الموت، القضية الأكثر خطورة وإثارة للخوف والتشاؤم .

ومن نماذج هذا الشعر ما نجده لدى صفي الدين الحلي من أبيات في الرثاء لا تتجاوز مدار التصبر والقبول بالقضاء والقدر والاستعبار من هذه الحادثة نراه يقول [11ص339–340]

يَا بُدُورًا تَغَيَّبُ تَحْتَ التُّرَابِ ... وَجِبَالًا تَمُرُّ مَرّ السَّحَابِ
إِنّ فِي ذَلِكَ اعْتِبَارًا وَذِكْرَى ... يَتَوَعَّى بِهِ ذَوُو الأَلْبَابِ
قُلْ لِصَادِي الآمَالِ لَا تَرِدِ الغَيْـ ... ـشَ، فَإِنَّ الحَيَاةَ لَمْعُ سَرَابِ
أَيْنَ رَبُ السَّرِيْرِ وَالجِيْزَةِ البَيْـ ... ـضَاءِ ذَاتِ النَّخِيْلِ وَالأَعْنَابِ
عَرَصَاتٌ كَأَنَهُنَّ سَمَاءٌ ... قَدْ تَوَارَتْ شُمُوسُهَا فِي الحِجَابِ

أَيْـــــنَ رَبُ الآرَاءِ وَالرُتْبَـــــةِ العَلْـــــــ يَـــــــاءِ وَالمَاجِـــــدُ الرَّفِيْـــــعُ الجَّنَـــــابِ

الى ان يقول :

أَيُّهَـــا الـــذَّاهِبُ الـــذَّيْ عَـــرِّضَ الأَمْـــــ ـــــــــوَالْ وَالنَّـــــاسَ بَعْـــــدَهُ للـــــذَّهَابِ
طَـــارَ لُـــبُّ الـــسَّمَاحِ يّـــوْمَ تُوفِيْـــــ ـــــــــتَ وَشُـــــــقَّتْ مَرَائِـــــــرُ الآدَابِ
وَعَلَـــا فِـــيْ المَلَـــا عَوِيْـــلُ العَـــوَالِي وَنَحِيْـــــــبَ اليَـــــــرَاعِ وَالقُرْضَـــــــابِ

تنتشر في هذه الأبيات معاني الوعظ الإرشاد والتحذير والإشارة إلى أن الحياة زائلة غير دائمة ولا باقيـة، على الإنسان الحذر منها والتحوط فهي منتقلة ولا احد له جانب الأمان منها فلا أمان فيها للصغير ولا للكبير إلى أن يخلص إلى أبيات يمدح فيها المرثي:

أَيُّهَـــا الـــذَّاهِبُ الـــذّي عَـــرِّضَ الأمْـــــ ـــــــــوَالْ وَالنّـــــاْسَ بَعْـــــدَهُ لِلـــــذَّهَابِ

عرض فيها لمجموعة من خصال الميت وما طرأ على أهله ومحبيه من حرارة الفراق وحرقـة الألـم، إذ علا في الملا عويل العوالي ونحيب اليراع والقرضاب وهي أداوت حرب وكتابة تشير الى منزلة الفقيد وتمكنه من أداوت الحرب والكتابة .

إن الأبيات أعلاه لا تتجاوز هي الأخرى مدار البكائيات والرثائيات ذات الطابع الجنائزي المحكـوم بقـيم اجتماعية، فالموت هنا تسبب بخسارة واجهة اجتماعية مهمة كان لها باع طويل ومنزلة عظيمة، فالفقدُ فقدٌ ذو بعـدٍ اجتماعي وما حرّك الشاعر لقول ما قاله هو الفراغ الذي تسبب به الفقيد للمجموعة البشرية التي كان يعيش بينهـا، فشعر الرثاء أعلاه يمكن عده – وأمثاله كثيرة– استجابةً لضاغط اجتماعي، وهي استجابة محكومة من حيث أسلوب التعبير ومستواه ونوع الأفكار ومحتواها محكومة إلى الضاغط الاجتماعي نفسه الذي تطلب نظم هذه الأبيات

ونحن _فيما نحاول الابتعاد عن تعميمات لا تتفق وروح النقد– إلا لكن استطلاع شعر الرثاء فـي هـذا العصر يبين انه في معظمه كان يعبر عن الرؤية الاجتماعية الشائعة حول الموت:أسبابه، نتائجه، تبعاته، وفلـسفته بعامة. وهو شيء يحق لنا ربطه بما ذهبنا إليه من ان الشعر في هذا العصر صار ممارسة حياتية يقوم بهـا كـل شخص، أما أغراضه فقد تعاورها الشعراء من اجل الظهور فقط وتزجية الوقت واسـتكمال أغـراض الـشعر،لا لحاجة فكرية أو شعورية ماسة، فهو لا يقول الرثاء لأنه حزين إنما يقوله ترضية للمطالبات الاجتماعية أحيانا.

وفي مدارات قريبة من تلك التي سبق الحديث عنها يقول شهاب الدين التلعفري. [13ص81–82]

أَكَـــذَا تَهْـــدِمُ المَنُـــوْنُ الجِبَالَـــا ؟ أَكَـــذَا يَنْـــزِعُ الحِمَـــاْمُ النِّـــصَالَا؟
أَكَـــذَا تَحْطِـــمُ الرَّزَايَـــا العَـــوَالِيْ ؟ أَكَـــذَا تُـــثلَمُ الـــسّيُوْفُ الـــصِّقَالَا؟
أَكَـــذَا تَرْجِـــعُ البِحَـــارُ وَقَـــدْ فَـــاْ ضَـــتْ عُبَابَـــا وَقَائِعًـــا أَوْشَـــالَا ؟
سَـــلَبَ الحَـــادِثُ الجَلِيْـــلُ مَلِيْكًـــا لَـــمْ يُخَيِّـــبْ لِقَاصِـــدٍ آمَالَـــا
كَـــسَفَ المَـــوْتُ شَـــمْسَ أُفْـــقِ المَعَـــالِيْ وَأَصَـــاْبَتْ يَـــدُ المَنَايَـــا الهِلَالَـــا

لا يتجاوز الشعر هنا أيضا مدار رصد النتائج والتأثيرات النفسية والاجتماعية التي تقع على الشاعر وكيف صوّر هو بدوره هذه التأثيرات أي كيف انعكس الموت وهو الواقعة الوجودية الكبيرة على الشاعر ليتحول عبر شعره إلى واقعة ذاتية لكن الشاعر في العصر الوسيط لا يضفي الكثير من الذاتية على هذه الواقعة فيبقى ظهورها في الشعر ظهورا موضوعيا قلما نجد أن الشاعر قد تمكن من أن يسم هذه الظاهرة بميسمه الخاص ويُلقي عليها من ظلاله إنما يتجاوز دورُه دورَ المعبر عن هذه الظاهرة في ظروفها وحدودها الموضوعية ليتناول بدوره ما يتناقله زملاؤه وأقرانه من صور الفجيعة وتشكيلات المأساة .

إن هذا الأمر يمكن تفسيره بسببين اثنين احدهما عدم تغلغل هذه المفردة في نفس الشاعر إثناء الكتابة وهو تسويغ لا يمكن الركون إليه لان هذا النمط من الشعر هو النمط السائد عند معظم شعراء هذا العصر، وليس شيئا استثنائيا عند شاعر من دون سواه، ونحن هنا لا نقلل من أهمية الفكر الديني أو الموقف الديني في معالجة هذه القضية و لكننا نلفت النظر إلى ان الرؤية الشعرية ينبغي أن تكون اعقد وأكثر سعة من الرؤية الديني المحضة ذلك ان الرؤية الشعرية تختزن في ذاتها مجموعة من العناصر المساهمة مثل الموهبة و الثقافة و التجربة الحياتية و لا بأس ان تكون الرؤية الدينية عاملا مساهما في تكوين الرؤية الشعرية ولكن المشكلة هي ان تكون الرؤية الشعرية انعكاسا كاملا للرؤية الدينية بحيث يصبح النص الشعري نصا عاكسا لتوجه واحد و نمط فكري واحد الأمر الذي يحيله إلى نص دعائي أكثر ما هو نصا أدبي، والآخر هو عدم استيفاء الشاعر لشروط الاندماج التام والمحايثة الشعورية الكاملة للواقعة، الأمر الذي يجعل شعرهم يدور في مدارات مبتذلة وهو تبرير يمكن قبوله في حدود بل يمكن إطلاقه على اغلب شعراء الرثاء في العصر الوسيط باستثناء عدد قليل منهم.

فهذا كله وغيره أيضا يكشف بشكل جلي عن سيطرة المنظومة الدينية على أفكار الشعراء بحيث شكلت هذه المنظومة خيمة واسعة ومرجعية جامعة في موضوع مهم وإشكالي إلى درجة كبيرة، فصار الشعراء يصدرون من دون انتباه أو بانتباه كامل أحيانا عن هذه المنظومة وهو أمر يكشف عن قوتها وعن ضعف الشعراء بالمقابل في مواجهتها وإبداء نوع من الاستقلالية في قبالتها وهو أمرٌ لم يكن بالمقدور حدوثه بسبب ضعف المواهب وبساطة القابليات وضيق أفق الثقافة الشعرية عندهم .

إلا إن حضور الموت – مفردة وواقعة – لم يقتصر على شعر الرثاء فقط بل كان له وجود في شعر الحب هنا وهناك في أشعار العصر الوسيط، الذي يتناول أحوال المحبين ومواقفهم ومعاناتهم ومنازعاتهم، يقول شهاب الدين التلعفري. [13ص97]

عَجَبًا لِمَنْ يَوْمَ النَّوَى يَتَجَلَّدُ ... وَغَرَامُهُ وَقْفٌ عَلَيْهِ مُخَلَّدُ

تَسْرِي الرِّكَابُ بِمَنْ يُحِبُّ وَلَمْ يَمُتْ ... أَتُرَى حَدِيدٌ قَلْبُهُ أَمْ جَلْمَدُ؟

مَا نَفْعُهُ بِبَقَائِهِ وَشَقَاؤُهُ ... مُتَضَاعِفٌ وَعَنَاؤُهُ مُتَجَدِدُ؟

هِيَ مُهْجَةٌ لَا بُدَّ مِنْهَا فَلْيَجُدْ ... عَجَلًا بِهَا إِنْ كَانَ مِمَنْ يَسْعَدُ

ففراق الأحبة وبعدهم موقف جلل وحدث عظيم جدير بان يتلف المرء نفسه ويهدر روحه ويزهق مهجته فلا نفع من الحياة بعدهم، والشاعر يعجب اكبر العجب ممن يحتفظ بتجلده ورباطة جأشه في موقف ملم كهذا.

إن حضور مفردة الموت هنا مثّل صورة رمزية وتمظهرا رمزيا للموت، فموقف الحب لا يؤدي إلى الموت الفعلي وهو وإن أدى بحسب بعض المرويات التاريخية والأدبيات المنقولة عن أبطال قصص الحب والهوى

العرب، إلا انه من المستبعد الذهاب إلى أن الموت المراد هنا هو موت فعلي بل هو موت رمزي يشير إلى مقدار المعاناة التي يشتمل عليها موقف كهذا خصوصا وإن الحب كثيرا ما ارتبط بالموت.

إلا إننا نعثر عبر استطلاعنا لشعر هذه الفترة على بعض المحاولات التي تمثل تداخلا وخلخلة للمفاهيم الإشكالية (الموت والحياة) وهو أمر قليل جدا .إذ إننا قلما نعثر على معالجات ذات أبعاد فلسفية صادمة وعميقة في شعر هذا العصر وهو أمر تبين عبر استطلاع شعر الرثاء الحاضن لتصورات الشعراء حول هذه القضية.

ان الشاعر العراقي صفي الدين الحلي تميز ببعض الخصوصية في هذا المجال وكشف عن حساسية متميزة ضمن المألوف الجماعي في تفكر مفهوم الموت، وشائع أن المألوف الجماعي هنا متحرك ضمن مجموعة الاشتراطات والقيم التي سنّها الإسلام فلم يصدر الشعراء إلا عن هذه الاشتراطات، فقلما وجدنا الموت إلا من حيث هو قضاء وقدر وأمر محتوم لا مفر منه ولا مهرب إلى غير ذلك...، ولكن صفي الدين الحلي يقدم أحيانا صورا غير مألوفة بالنسبة لعصره إذ يقول: [11ص24-25]

سَأَظَلُ كُلَّ صَبِيْحَةٍ فِيْ مَهْمَهٍ ... وَأَبِيْتُ كُلَّ عَشِيَةٍ فِيْ مَنْزِلِ
وَأَسِيْرُ فَرْدًا فِيْ البِلَادِ وَإِنَّنِيْ ... مِنْ حَشْدِ جَيْشِ عَزَائِمِيْ فِيْ جَحْفَلِ
أَجْفُوْ الدِّيَارَ فَإِنْ رَكِبْتُ وَضَمّنِي ... سَرْجُ المُطَهَّمِ قُلْتُ هَذَا مَنْزِلِيْ
لَا تَسْمَعَنَّ بِأَنْ أُسِرْتُ مُسَلّماً ... وَإِذَا سَمِعْتَ بِأَنْ قُتِلْتُ فَعَوّلِ
مَا الاعْتِذَارُ وَصَارِمِيْ فِيْ عَاتِقِي ... إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ دُوْنِ أَسْرِيَ مَقْتَلِيْ
مَا كَانَ عُذْرِي إِنْ صَبَرْتَ عَلَى الأَذَى ... وَرَضِيْتُ بَعْدَ تَدَلُّلِي بِتَذَلُّلِيْ
فَإِذَا رُمِيْتُ بِحَادِثٍ فِيْ بَلْدَةٍ ... جَرِّدْ حُسَامَكَ صَائِلًا أَوْ فَارْحَلِ
فَلِذَاكَ لَا أَخْشَى وُرُوْدَ مَنِيّتِي ... وَأَرَى وُرُودَ الحَتْفِ عَذْبَ المَنْهَلِ
فَإِذَا عَلَا جِدِيْ فَقَلْبِيْ جَنَّتِيْ ... وَإِذَا دَنَا أَجَلِيْ فَدِرْعِيَ مَقْتَلِيْ
مَا تِهْتُ بِالدُّنْيَا إِذَا هِيَ أَقْبَلَتْ ... نَحْوِيْ وَلَا آسَى إِذَا لَمْ تُقْبَلِ

لا نجانب الحقيقة إذا ما قلنا إننا هنا أمام مسلك مختلف وتصور جديد حول مفهوم الموت، فلا وجود لبكائيات انهزامية وروح رثائية صاغرة، أي إن هذه الرؤى الواردة في النص أعلاه لم تُستمد من الوعي الديني الراكز في العقل الجماعي بل هي نتاج معاناة ومكابدة وتفكر في هذه القضية.

لقد وضعنا الشاعر أمام معمار باذخ يضج برؤاه وأفكاره إلى حد التداخل بين الموقفين والمفهومين- الحياة والموت- إذا تتبدى صور الموت في ذهن الشاعر على أنها ممارسة حياتية تخضع للاختيار والرفض، فيمجّد النص السابق قيم الحرية والتنقل والاستكشاف والعيش بشكل متفرد بعيدا عن املاءات وضغوطات الجماعة البشرية،إذ يقول:

وَأَسِيْرُ فَرْدًا فِيْ البِلَادِ وَإِنَّنِيْ ... مِنْ حَشْدِ جَيْشِ عَزَائِمِيْ فِيْ جَحْفَلِ
أَجْفُوْ الدِّيَارَ فَإِنْ رَكِبْتُ وَضَمّنِي ... سَرْجُ المُطَهَّمِ قُلْتُ هَذَا مَنْزِلِيْ

يشتمل هذان البيتان على قيم معتمدة فسي عصور سابقة من عصور الثقافة العربية وهي تنتمي إلى عصر الترحال والتنقل ومناخ البداوة الذي يتنافى مع مزاج المدينة الميال إلى الاستقرار والثبات، إذ إن للمرء جيشا من عزائمه بحسب الشاعر يستعين بها على تجاوز معضلات الحياة ومشاكلها، ومنزله الفرس المطّهم، ولا يرضى أن يعيش أسيرا بل يفضل الموت كريما على ذلك وهو يخلخل هنا طرفي المعادلة ويقرب المسافة بين الحدين المتنافرين (الموت والحياة) إلى الحد الذي يداخل فيه بين المفهومين فتصبح الحياة–بمفهومها التقليدي– عنده موتا والموت حياة لأنه في عز وكرامة، وقوله:

فَلِـــذَاكَ لَـــا أَخْـــشَى وُرُوْدَ مَنِيّتِـــي وَأَرَى وُرُودَ الحَتْـــفِ عَـــذْبَ المَنْهَـــلِ

إن هذا البيت يوحي بإقبال الشاعر على الموت لا إدباره عنه ولا خوف من الموت ولا استسلام هناك،وكأن الشاعر يختار هذا الطريق من دون سواه، إذ ليس الأمر قدرا أو قضاء محتوما إنما هو اختيار بين اختيارات عديدة وقرار فردي يتطلب الإقدام والجرأة على صعيد التجربة الحياتية ويفترض حرية التفكير وسعة الأفق وانسلاخا من القوالب الجاهزة والقرارات المعدة سلفا التي سيطرت على أذهان الشعراء بضغط الدين أو الأعراف الاجتماعية.

أما قوله:

مَـــاْ تِهْـــتُ بِالـــدُّنْيَا إِذَا هِـــيَ أَقْبَلَـــتْ نَحْـــوِيْ وَلَـــا آسَـــى إِذَا لَـــم تُقْبَـــلِ
وَكَـــذَاْكَ مَـــاْ وَصَـــلَتْ فَقُلْـــتُ لَهَـــا آقْطَعِـــي يَوْمًـــا، وَلَـــا قَطَعَـــتْ فَقُلْـــتُ لَهَـــا صِـــلِيْ

فالفرق شاسع جدا بين اللامبالاة الكاملة بالثنائية الحرجة – الموت والحياة – وبين الرضوخ الكامل والاستسلام التام للمسير الجرار لموكب القدر، في الأول تتجسد الحرية وتظهر علائم التفكير الفردي الذي يغرد خارج السرب، وفي الثاني تتضح التبعية التامة لمنظومة سابقة مهيمنة وحاكمة .

وتتكرر في أشعار صفي الدين الحلي مثل هذه المواقف المتمردة وهو أمر متفرد ومتميز في شعر العصر الوسيط عندما يتعلق الأمر بالتعبير عن الموت والتفكير فيه إذ يقول: [11ص347]

نُفُـــوْسُ الـــصِّيْدِ أَثْمَـــانُ المَعَـــاْلِيْ إِذَا هَـــــزَّتْ مَعَاطِفَهَـــــا العَـــــوَاْلِي
وَأَبْـــدَتْ أَوْجُـــهُ البِـــيْضِ آبْتِـــسَامًا يُطِيْـــلُ بُكَـــاءَ آجَـــالِ الرِّجَـــالِ
وَمَـــنْ عَـــشِقَ العَلَـــاءَ وَخَـــاْفَ حَتْفًـــا غَـــدَا عِنْـــدَ الكَرِيْهَـــةِ وَهُـــوَ سَـــاْلِي
وَلَـــمْ يَحُـــزْ العُلَـــا إِلّـــا كَمِـــيٌّ رَحِيْـــبُ الـــصَّدْرِ فِـــي ضِـــيْقِ المَجَـــاْلِ
تَـــيَقَنْ أنّ طِيْـــبَ الـــذِّكْرِ يَبْقَـــى وَكُـــلُّ نَعِـــيْمِ مَلْـــكٍ فِـــي زَوَالِ
لِـــذَاْكَ سَـــمَتْ بِـــرُكْنِ الـــدِّيْنِ نَفْـــسٌ تَعَلَّـــمَ رَبُّهَـــا طَلَـــبَ الكَمَـــالِ
سَـــمَتْ فَأَرَتْـــهُ حَـــرَ الكَـــرِّ بَـــرْداً وَيَحْمُـــوْمَ المَنِيِّـــةِ كَالزُّلَـــالِ
فَـــأَلْبَسَ عِرْضَـــهُ دِرْعًـــا حَـــصِيْنًا وَصَـــيَّرَ جِـــسْمَهُ غَـــرَضَ النِّبَـــالِ

تنهض هذه الأبيات برؤية مبنية هي الأخرى على نمط من التفرد والخصوصية، إذ ان تناول مفهوم الموت يتجاوز الحدود الزمانية والأبعاد النفسية والطاقة الافنائية للموت ليحوله إلى عنصر يتم تشكيله طوعا بيد المرثي هنا، إلا إن الأمر لا يبقى مجرد انتظار سلبي خال من الفاعلية للموت، بل يتجاوز ذلك ليصبح مشاركةً فعليةً في صنع الحدث متجاوزة حدود الزمان ومبادئ الوجود والفناء، أو هي محاولة جديدة في التعامل مع هذه القضايا تتجاوز المُسَبَّقات الفكرية والقناعات المبدئية التي تم رصدها واعتمادها في معالجة هذه المفاهيم.

ولعل الخروج عن القيم التقليدية يُعد شيء غير متداول إلى حد كبير في أدبيات العصر الوسيط، وهو شذوذ ونسج على غير المألوف لم يرقَ في تصورنا إلى أن يكون أو يمثّل تيارا أو فلسفة مستقرة ذات حدود وملامح واضحة ومميزة، بل هو نوع من التمرد الذي لا تخلو منه الروح البشرية بعامة، فضلا عن الروح الشاعرة، بخاصة وهي التي بدورها مجبولة على التمرد والرفض، ولذلك يصعب الذهاب إلى أن هذه الأمثلة والأبيات الشعرية كانت نتاج التجربة الحياتية والثقافة والموهبة ومحاولة إيجاد تيار مستقل، إنما هي أفكار ونظرات تشذ هنا وهناك على صعيد شعر العصر الوسيط بعامة وعلى صعيد شعر شاعر بعينه بشكل خاص ومتميز.

CONFLICT OF INTERESTS
There are no conflicts of interest

مصادر البحث

1. اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، محمد مصطفى هدارة، دار المعارف، القاهرة،1963م،د.ط.
2. رثاء الأبناء في الشعر العربي حتى نهاية العصر العباسي، رسالة دكتوراه، محمد عبد القادر حسن غنيم، جامعة البنجاب، (د.ط)،(د.ت.).
3. الرثاء،شوقي ضيف، دار المعارف،القاهرة،مصر،ط4،(د.ت.).
4. الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء، احمد فوزي الهيب، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان،:277، نقلا عن الشعر في المشرق العربي من656هـ-1213هـ ، محمد شاكر الربيعي، دار الصادق، العراق، بغداد، ط1، 2014
5. آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي، ياسين الأيوبي، جروس برس، طرابلس، لبنان، ط1،1995م.
6. الأدب العربي في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، عمر موسى باشا، المكتبة العباسية، دمشق، (د.ط)، (د.ت).
7. الأدب العربي في العصر المملوكي، محمود سالم محمد ويوسف بلال، منشورات جامعة دمشق، (د.ط)،2017م.
8. التراث التقني في الشعر العربي في القرنين الرابع والخامس الهجريين (المتنبي، والرضي، والمعري) أنموذجا . بحث منشور في مجلة جامعة بابل / العلوم الانسانية/ المجلد 18/عدد2/2010.
9. الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، ابن الفوطي،تح: مهدي النجم، دار الكتب العلمية،بيروت لبنان، ط1،2002م.
10. ديوان شهاب الدين محمود الحلبي (ت725هـ)،تح: عادل كتاب العزاوي، دار الفراهيدي، بغداد، العراق، ط1،2013م.

11.ديوان صفي الدين الحلي، دار صادر بيروت، (د.ط.)،(د.ت.).
12.ديوان مجير الدين بن تميم، ت:هلال ناجي و ناظم رشيد، درا عالم الكتب، بيروت بلنان، (ط1)، 199م
13.ديوان شهاب الدين التلعفري ،ت: رضا رجب، دار الينابيع، دمشق، سوريا،(2)، 2004م.